الفصل الثالث

منهج الحياة الذى رسمته أنباء الإسراء والمعراج

ونعود من جديد إلى أسانيد حادث الإسراء والمعراج فى السُّنة الشريفة ، فنقول :

إن حادث الإسراء والمعراج ورد فى روايات عدة ، منها الصحيح ، ومنها الحسن ، أخرجها أئمة الحديث رضوان الله عليهم ، يذكر بعضها ما لم يذكره البعض الآخر ، تتفق فى جوهرها ولا تتعارض فى جزئياتها ، يرويها بعضهم مختصرة ، ويرويها بعضُهم متوسطة ، ويرويها بعضهم مطولة ، وكل صورة منها يتعدد سندها ، أى يختلف الرواة الذين رووها ، ومع ذلك تكون الصورة واحدة فى جوهرها .

الجوهر إذن متواتر ، وإذا أخذنا برأى الإمام ابن حزم فى أن المتواتر ما روى بروايتين فإن التفاصيل – فى أغلبها – تكون أيضاً متواترة .

كل هذا مع ثبوت الأمر فى جوهره بالكتاب العزيز . ونحن إذن حينما نبدأ فى الحديث عن الإسراء والمعراج على أنه منهج الحياة ، ونستمد الصورة أحياناً من الجزئيات والتفاصيل ، فإنما نقف فى ذلك على أرض صلبة ونسير فى الرسم على أساس من المروى .

التوبة

وتبدأ قصة الإسراء والمعراج فى بعض روايات البخارى ، وفى بعض روايات غيره بشق الصدر ، من ذلك ما يرويه أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال :

كان أبى بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها فى صدرى ثم أطبقه . . . » .

هذا الحادث هو بالنسبة لنا التوبة ، فإن تطهير القلب الذى حدث لرسول الله ﷺ ، عدة مرات فى حياته إنما هو بالنسبة لأتباعه بمثابة التوبة.

والواقع أن حياة المسلم فى طريقه إلى الله ، إنما تبدأ بالتوبة ، وليس قبل التوبة من درجة تسبقها ، والتوبة التى نتحدث عنها إنما هى التوبة الخالصة النصوح ، فإن الله تعالى يقول :

(يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً . .)[1] .

فأرشد سبحانه إلى أن التوبة المطلوبة إنما هى التوبة النصوح ، ولأجل أن تكون التوبة خالصة نصوحاً فإنه لابد من توفر شروط .

(١) سورة التحريم : آية ٨ .

ويتحدث الإمام النووى عن شروطها فى كتابه المبارك « رياض الصالحين » فيقول :

التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى ، لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط :

أحدها – أن يقلع عن المعصية .

والثانى – أن يندم على فعلها .

والثالث – أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة فلا تصح التوبة .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف أو نحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

ولأن التوبة أول سلم فى معراج السالكين إلى الله ، ولأنها واجبة من كل ذنب ، ولأنها تجب [1] ما قبلها ، ولأنها تضع الإنسان فور تحققه بها فى مرتبة البراءة والطهارة والنقاء ، فإن الإسلام حث عليها كثيراً . يقول الله تعالى آمراً بها :

(وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)[2] .

---

(١) أى تمحوه وتزيله

(٢) سورة النور : آية ٣١

وقد فتح الله بابها – خالصة نصوحا – على مصراعيه ، فقال فى أسلوب يسيل رحمة ورأفة :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [1] .

إنه سبحانه يغفرها بالتوبة ، لأنه سبحانه يقول بعد ذلك موجهاً المسلمين إلى الطريق :

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) [2] .

ويتابع القرآن فى التوجيه إلى التوبة فى أسلوب كله رحمة ورأفة ما جاء فى حديث قدسى طويل رائع ، يقول الله تعالى فيه :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم » .

ويتابع ذلك كله الأحاديث النبوية :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ورسول الله ﷺ ، يعترف بالخطيئة كواقع لا يتأتى إنكاره فيقول :

---

(١) سورة الزمر : آية ٥٣ .

(٢) سورة الزمر : الآيتان ٥٤ و ٥٥ .

« كل ابن آدم خطاء » .

ولكنه يرشد إلى الوسيلة التى تفضل بعض الخطائين وتجعل لهم منزلة فى الخير ، فيقول :

« وخير الخطائين التوابون » .

يقول الإمام القشيرى :

ومن لطائف المعراج : ما خص به أول حاله فى تلك الليلة بالطهارة على ما ذكرنا فى بعض الروايات فيما تقدم : أن جبريل عليه السلام حمله إلى زمزم وشق صدره وغسل قلبه .

وقد شق قلب النبى ﷺ مرتين : مرة فى حالة صباه ، وهو بعد فى حجر حليمة ، والمرة الثانية ليلة المعراج .

وفى تخصيص قلبه بالغسل دون غيره من البدن إشارات . منها : أن القلب محل العرفان ، وهو المضغة التى بصلاحها صلاح البدن .

وهو محل المشاهدة .

ولكى لا يكون لغير الحق نصيب فى قلبه .

ولتنبيه الأمة على طهارة القلب .

وإذا كان شق الصدر الذى سبق هذا الحادث الخطير — حادث الإسراء والمعراج — هو بالنسبة لنا التوبة ، فإنه أيضاً توجيه واضح لنا أن نلجأ إلى الله تعالى تائبين عند الشروع فى أى عمل له قيمته .

إنه توجيه لنا أن نلجأ إلى الله تائبين عند الشروع فى شراء ، وفى

بيع ، فى ارتباط بزواج ، فى بناء بيت ، فى الشروع فى سفر .

وليست التوبة فى مثل ذلك توبة من ذنب . وإنما هى التجاء إلى الله ، وتشفع إليه سبحانه بتأكيد صفاء النفس وطهارة القلب من أجل أن يسدد الخُطى ويمنح التوفيق ، ويحفظ من الأخطاء .

إنها توصل إلى الله بعمل صالح هو التوبة .

الغاية فى منهج الحياة

ويمكن للإنسان أن يتعجل السؤال عن الغاية فيقول :

إذا كان بدء الرحلة الإسلامية إنما هو التوبة فما نهايتها ؟

ونقول دون تردد ولا شك :

ليس دون الله منتهى .

وذلك أن الله سبحانه وتعالى هو الغاية للمؤمن المتبصر .

ولقد أعلن الله صراحة أنه سبحانه إليه المنتهى فقال :

(وأن إلى ربك المنتهى)[1] .

ويقول أبو سعيد الخراز رضى الله عنه معبراً عن شعور المؤمن بالنسبة لله سبحانه :

---

(١) سورة النجم : آية ٤٢ .

« كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك سوى الله قليل » .

إن هجرة المؤمن إليه سبحانه :

(إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) [1] .

وفرار المؤمن إلى الله ، ولقد أمر الله بالفرار إليه فقال :

(ففروا إلى الله) [2] .

وذهاب المؤمن إليه :

(إنى ذاهب إلى ربى) .

ولقد كانت نهاية الرحلة التى نحن بصددها – رحلة الإسراء والمعراج – الانتهاء إلى الله سبحانه وتعالى ، فهى رحلة انتهت إلى غايتها الحقيقية التى هى الله ، فحققت :

(وأن إلى ربك المنتهى) .

وإنه – إذا تحدثنا عن ثمرة السلوك إلى هذا المنتهى – بمقدار قرب السالك من هذا المنتهى تكون رعاية الله له وعنايته به .

على أن هذه الرعاية ، وهذه العناية تبدأ منذ الخطوة الأولى التى تتمثل فى الاستغفار .

---

(١) سورة الصافات : آية ٩٩ .

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٠ .

والله سبحانه وتعالى يأمر بالاستغفار ، ويبين ما يترتب عليه من آثار . وهى آثار ليست بالهينة ، أو التافهة ، إنها آثار ضخمة ، يقول سبحانه :

(استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا)[1] .

ويقول سبحانه :

(استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم)[2] .

وكلما ازداد الإنسان استغراقاً فى السلوك إلى الله ، ازدادت رعاية الله له وعنايته به ، حتى إذا ما انتهى إليه سبحانه كانت العناية المناسبة ، والرعاية الكافية ، فى الدنيا والآخرة :

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم)[3] .

وليس معنى الوصول إلى هذا المنتهى – وهو الله سبحانه – الاستقرار الروحى ، كلا ، وإنما معناه من جانب ، زوال القلق والاضطراب النفسى . وزوال هم الرزق ، وخوف الموت ، وزوال كل ما يصرف

---

(١) سورة نوح : الآيات ١٠ – ١٢ .

(٢) سورة هود : آية ٥٢ .

(٣) سورة يونس : الآيات ٦٢ – ٦٤ .

الإنسان عن الله، أو يشغل بؤرة التفكير، ويحل فى أعماق النفس.

ولكن الوصول إلى هذا المنتهى معناه من جانب آخر – الرقى الروحى الدائم، الفيوضات الإلهية المستمرة، المعرفة اللدنية المتتالية، وصلوات الله وسلامه على من وصل إلى هذا المنتهى وأمر مع ذلك أن يقول:

(ربِّ زدنى علما)[1].

وزيادة العلم فى عرف أولياء الله، إنما هى زيادة السعادة، ومن أجل ذلك يقول أحد العارفين:

نحن فى سعادة لو عرفها الملوك لجالدونا عليها بسيوفهم.

وتتلون السعادة بلون المعرفة، ولكل باب من أبواب المعرفة مذاق خاص، فله إذن لذة خاصة – إذا أمكن التعبير بكلمة اللذة فى هذا المقام – وهو يسلم إلى ما يليه، وما يليه له مذاقه الخاص فله أيضاً لذته، إنها جنة الدنيا فى سموها وجمالها وجلالها.

ولا يحجب أولياء الله عن الله مال. وقد يكونون فى ثراء عريض فلا يصرفهم ذلك عن الله، وما صرف سليمان ملكه عن الله، وقد يعرض عليهم الثراء العريض فلا يعيرونه أهمية.

ولقد قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة طه: آية ١١٤.

« خيرت بين أن أكون ملكاً رسولا . أو عبداً رسولا ، فاخترت أن أكون عبداً رسولا » .

ويتحدث الإمام أبو سعيد الخراز عن ذلك بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فيقول :

وهذا النبى ﷺ :

بينما جبريل عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط .

فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فى أمر .

فجاء إلى النبى ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل وقال له :

هذه مفاتيح خزائن الأرض تسير معك ذهباً وفضة مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ولا تنقصك مما لك عند الله شيئاً .

فلم يخير النبى ﷺ ذلك . وقال :

« أجوع مرة وأشبع مرة » .

ولا يحجب أولياء الله عن الله لذة حسية فهم فى لذة دائمة مستمرة أسمى وأنفس .

إنهم لا يحجبهم عنه متاع دنيوى أيًّا كان ، فاستبشار قلوبهم بقربها إلى الله تعالى . وسرورها به . وهدوئها فى سكونها إليه وأمنها معه .

ما بين البدء والغاية

الجهاد

كيف الوصول إلى هذا المنتهى الذى فيه الرضا ، وفيه زيادة الأنوار ، وتلاحقها على الدوام ، وفيه السعادة التى لا تنقطع ، وفيه مرضاة الله سبحانه وتعالى ، وحفظه وعنايته ، ورعايته ومحبته ؟

هذا ما ترسمه الرحلة المباركة فيما بين شق الصدر أو التوبة وبين : (ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى)[1] .

وبمجرد أن تبدأ الرحلة المباركة ، يرى رسول الله ﷺ أمراً عجيباً . إنه يرى قوماً يزرعون ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان .

فقال النبى ﷺ لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال : « هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

وتنقلنا هذه الرؤية من التوبة مباشرة إلى الجهاد .

وهذا انتقال طبيعى ، فإنه إذا كانت التوبة حقًّا خالصة نصوحاً استتبعت لامحالة الجهاد .

وللجهاد فى الدين الإسلامى مكانة عظمى : فقد روى الشيخان

(١) سورة النجم : الآيتان ٨ و ٩ .

بسندهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال :

قلت يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟

قال : « الإيمان بالله والجهاد في سبيله » .

والجهاد في سبيل الله أوسع وأعم من أن يقتصر على الجهاد الحربي . إن من أنواع الجهاد في سبيل الله ، جهاد النفس حتى تستقيم على التوبة ، وجهادها على العموم حتى تتزكى من بعد التوبة .

(قد أفلح من زكاها) [1] .

(ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) [2] .

وجهاد الأسرة حتى تستقيم على أمر الله .

والله سبحانه وتعالى يقول :

(يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) [3] .

وكان سيدنا إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيًّا .

ولا يعني جهاد النفس وجهاد الأسرة عن جهاد المجتمع .

---

(١) سورة الشمس : آية ٩ .

(٢) سورة فاطر : من الآية ١٨ .

(٣) سورة التحريم : آية ٦ .

وكل ذلك أنواع متناسقة من ميدان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وهو مبدأ أساسى فى الدين الإسلامى ، ولأجل أن يبين الله سبحانه وتعالى أهميته الكبرى ، ذكره قبل الإيمان بالله ، مبينا أنه مناط خيرية الأمة الإسلامية فقال سبحانه :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

وعلى العكس من ذلك اليهود فقد :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

ولقد بين الإسلام وسائل الجهاد بحسب الظروف والملابسات ، وبحسب الإمكانات والاحتمالات .

عن أبى مسعود رضى الله عنه – فيما رواه الإمام مسلم – أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمّته حواريون وأصحاب يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره » .

ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون .

فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن .

ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن .

ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

وصور رسول الله ﷺ المجتمع ووجوب الأخذ على يد المفسد فيه — حتى لا يكون الهلاك — بالصورة الرائعة التالية التى رواها الإمام البخارى عن النعمان بن بشير عن رسول الله ، ﷺ ، قال :

« مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

وروى الترمذى عن حذيفة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ، ﷺ ، قال :

« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

وأن الله سبحانه وتعالى لا يخلى الأرض من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، فقد جاء فى الصحيحين :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك » .

أما الجهاد فيكفى – لبيان أنه من طبيعة الإسلام – أن نذكر فيه حديثين أو ثلاثة ، وأن نذكر فيه آيتين من القرآن أو ثلاثاً .

ونبدأ فى ذلك بما رواه الإمام مسلم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه – فيما رواه الترمذى – قال :

« مر رجل من أصحاب رسول الله ، ﷺ ، بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال :

« لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ، ﷺ . فذكر ذلك لرسول الله ، ﷺ .

فقال : لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟

اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة ، وجبت له الجنة .

وروى أبو داود بإسناد جيد ، عن أبى أمامة رضى الله عنه :

أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لى فى السياحة ، فقال النبى ﷺ :

« إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله عز وجل » .

والقرآن يربط الجهاد بالإيمان بحيث لا يتأتى أن يوجد الإيمان الصادق إلا والجهاد من عناصره . لقد اشترى الله – فى عقد الإيمان – من المؤمنين أنفسهم وأموالهم :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

والجهاد تجارة مع الله :

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) .

والجهاد داخل فى صدق الإيمان :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

إن الجهاد بأوسع معانيه إنما هو الخطوة الأولى بعد التوبة .

حياة الأنبياء والشهداء بعد الموت

إن الصلاة فى ترتيب الرحلة المباركة يأتى رمزها بعد رمز الجهاد مباشرة ، ولكننا مراعاة لما بين هذا الموضوع وما قبله نذكره هنا ثم نعود للترتيب الطبيعى فى الرحلة المباركة .

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أتيت – وفى رواية هداب : مررت – على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره » .

وأخرج الإمام مسلم أيضا بعدة طرق عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : مررت على موسى وهو يصلى فى قبره » .

وقد أخرج الإمام مسلم فى الصحيح من حديث عبد العزيز ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« . . . وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء » .

فإذا موسى قائم يصلى ، فإذا رجل ضرب [1] جعد كأنه من رجال شنوءة [2] ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلى ، أقرب الناس به شبها عروة ابن مسعود الثقفى .

وإذا إبراهيم قائم يصلى ، أشبه الناس به صاحبكم – يعنى نفسه – فحانت الصلاة ، فأممتهم . .

ولقد وردت السنّة الصحيحة بأن أجسام الأنبياء لا تأكلها الأرض ، أى أنها لا تبلى . فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أوس ابن أوس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فأكثروا علىّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ . قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت – يريدون بليت – فقال : إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء عليهم السلام » .

هذا الحديث أخرجه أيضاً الحاكم وصححه النووى ويقول البيهقى عنه : أخرجه أبو داود السجستانى فى كتاب السنن وله شواهد .

ثم يروى – من هذه الشواهد – بإسناده عن أبى مسعود الأنصارى ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

---

(١) الضرب من الرجال هو الخفيف اللحم .

(٢) شنوءة : قبيلة من قبائل العرب .

« أكثروا من الصلاة علىّ فى يوم الجمعة ، فإنه ليس أحد يصلى علىّ يوم الجمعة إلا عرضت علىّ صلاته » .

وروى البيهقى – من هذه الشواهد أيضاً – بإسناده عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أكثروا علىّ من الصلاة فى كل يوم جمعة ، فإن صلاة أمتى تعرض علىّ فى كل يوم جمعة ، فمن كان أكثرهم علىّ صلاة ، كان أقربهم منى منزلة » .

وسواء كان الإنسان بجوار الضريح الشريف أم كان بعيداً عنه فإن صلاته تبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فلقد أخرج البيهقى فى شعب الإيمان ، والأصبهانى فى الترغيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« من صلى علىّ عند قبرى سمعته ومن صلى علىّ نائياً بلغته »

ومن هذا القبيل ما أخرجه الإمام البخارى فى تاريخه عن عمار قال : سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

« إن لله تعالى ملكاً أعطاه أسماع الخلائق ، قائم على قبرى ، فما من أحد يصلى علىّ صلاة إلا بلغتها » .

ولقد أثبت الإمام القشيرى حياة الأنبياء بعدة طرق ، وأورد أحاديث فى ذلك ، نذكر منها حديث عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام » .

ويقول الإمام القشيرى تعليقاً على هذا الحديث : ولا يبلغ السلام إلا ويكون حياً .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه – فيما رواه ابن ماجه بإسناد جيد – قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة . فإنه مشهود : تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلى علىّ إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها » .

قال أبو الدرداء ، قلت : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

إن الأنبياء أحياء فى قبورهم بمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لموسى عليه السلام ، وبرؤيته للأنبياء ، وحديثه معهم ، وصلاته بهم .

أما الصلاة التى كانوا يصلونها ، فإنها لم تكن فرضاً وتكليفاً ، وإنما كانت شكراً وحمداً لله على نعمه ، وليس فى الآخرة تكليف ؛ وإن كان فيها أيضاً ترق روحى لا ينتهى ، لأن المدد الإلهى لا ينتهى ولكل درجة من درجات هذا المدد شعور بالحمد والثناء على الله والشكر لله ، يتناسب مع درجته ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

وقد يتساءل إنسان عن هذه الحياة بعد الموت. أهى خاصة بالأنبياء ؟ .

ونقول : إن القرآن الكريم يثبتها فى يقين جازم للشهداء ، يقول تعالى :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وبمناسبة هذه الآية روى الترمذى وحسَّنه ، وابن ماجه بإسناد حسن أيضاً ، والحاكم وقال صحيح الإسناد : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لما رأى جابر بن عبد الله مهمّا لاستشهاد أبيه فى غزوة أحد ، قال له مطمئناً مبشراً : ألا أخبرك ما قاله الله لأبيك ؟

فقال جابر : بلى ؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

«ماكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً». والكفاح : المواجهة . قال : سلنى أعطك . قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية . فقال الرب عز وجل : إنه قد سبق منى القول : «بأنهم إليها لا يرجعون» قال : أى رب فأبلغ من ورائى ، أى أبلغهم هذه النعمة الكبرى فى الجنة التى يتقلب فيها الشهيد ، فأنزل الله تعالى :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

وقال تعالى :

(ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) .

ويقول الإمام القشيرى : « فأخبر سبحانه أن الشهداء أحياء عند ربهم ، فالأنبياء أولى بذلك لتقاصر رتبة الكافة عن درجة النبوة » .

قال الله تعالى :

(فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء) .

فرتبة الشهادة ثالث درجة النبوة ، ولقد وردت الأخبار الصحيحة والآثار المروية بما يدل على هذه الجملة .

وبمناسبة الآيات القرآنية الشريفة عن الشهداءِ يقول ابن القيم : إن الله تعالى عزى نبيه وأولياءه من قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : « ولا تحسبن » الآيات . فجمع لهم إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم أحياء عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته » .

ولقد أخرج أحمد وعبد بن حميد فى مسنديهما ، والطبرانى بسند

حسن عن محمود بن لبيد عن ابن عباس مرفوعاً : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشية » .

وفى حياة الأنبياء والشهداء يقول القرطبى :

« الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى ، وقد صح أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، وفى السماء ، ورأى موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره ، وأخبره بأنه يرد السلام على كل من سلم عليه ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع ، بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم موجودون ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله بكرامته من أوليائه » .

والفقهاء يتحدثون عن الشهداء فى استفاضة ، ومما أثاروه بهذه المناسبة ، مسألة سؤال القبر بالنسبة للشهيد ، ولقد أفتى الإمام السيوطى بأن سؤال القبر ليس عاماً للخلق : بل يستثنى منه الشهيد ، ففى الحديث :

« أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أيفتن الشهيد فى قبره ؟ فقال : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » .

قال القرطبى فى التذكرة نقلا عن الحكيم الترمذى : معناه أنه لو كان عنده نفاق فر عند التقاء الزحفين وبريق السيوف ، لأن من شأن المنافق الفرار عند ذلك ، وشأن المؤمن البذل والتسليم لله ، فلما ظهر صدق ضميره حيث برز للحرب والقتل لم يعد عليه السؤال فى القبر الموضوع لامتحان المسلم الخالص من المنافق .

وقال القرطبى : وإذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق من باب أولى لأنه أجلّ قدراً ، وممن يستثنى : المرابط فقد ورد فيه أحاديث ، والمطعون ، والصابر فى بلد الطعن محتسباً حتى مات بغير الطاعون – صرح به الحافظ ابن حجر فى كتاب « بذل الماعون » .

ولعل هذه الحياة البرزخية ليست للأنبياء والشهداء فحسب ، وإنما هى لجميع الناس حتى الكفار منهم ، على أن القرآن والسنة يشيران إلى حياة الكفار بعد الموت قبل القيامة ، يقول تعالى عن آل فرعون : (النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب) .

ولا ريب فى أن النار التى يعرضون عليها ليست نار يوم القيامة . فما فى القيامة غدو وعشى ، ومافيها شروق وغروب . ثم إن العطف يقتضى المغايرة ، ومنطوق الآية : إن آل فرعون يعرضون على النار فى الصباح

وفى المساء ، يرون مكانهم فيها ومصيرهم الذى سيصيرون إليه ، حتى إذا كان يوم القيامة نادى مناد آمراً : « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ، أدخلوهم بعد أن كانوا يعرضون غدوا وعشيا ، أدخلوهم إلى إقامة مستمرة .

على أن حادثة أصحاب القليب معروفة مشهورة ، رواها الإمام البخارى بعدة روايات . ورواها غيره بعدة روايات أيضاً . من هذه الروايات الرواية الآتية عن البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، سمع روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك ، عن أبى طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلة فشد عليها رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟

فقال عمر : يا رسول الله أتكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم :

« والذى نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » .

هذه الروايات كلها تتكاتف وتتساند ، مع الأحاديث التى رويت فى عذاب القبر ، ونعيمه ، والتى تخبر أن القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، فتدل بمجموعها على أن كل إنسان إذا فارق الدنيا ، فإنما انتقل من طور إلى طور ، وأنه إذا كان الجسم سيبلى فإن الروح – مركز الشعور والإحساس والفكر –باقية تحس وتشعر وتفكر .

وعن المؤمنين عامة يحسن أن نورد القصة التالية :

أخرج البيهقى فى البعث ، والطبرانى بسند حسن ، عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك قال : «لما حضرت كعباً الوفاة آتته أم بشر بنت البراء ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، إن لقيت بشراً فأقرئه منى السلام ، فقال لها : يغفر الله لك يا أم بشر ، نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ونسمة الكافر فى سجين ؟ قال : بلى ، قالت : فهو ذاك » .

أما الحديث الذى صححه أبو محمد عبد الحق ، فهو ما رواه ابن عبد البر فى الاستذكار والتمهيد من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ولعل السؤال الملح فيما نحن بصدده هو :

ما نوع هذه الحياة التى يحياها الأنبياء والشهداء ، وغيرهم ؟

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال نورد ما ذكره ابن القيم بهذا الصدد فى كتابه النفيس « الروح » :

«إن الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب – تبعت الأبدان الأرواح فى أحكام دار البرزخ فى نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان [1] ظاهرة والأرواح خفية ، والأبدان كالقبور لها ، والأرواح هناك [2] ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها ، فتجرى أحكام البرزخ على الأرواح ، فتسرى إلى أبدانها نعيماً وعذاباً ، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان ، فتسرى إلى أرواحها نعيماً وعذاباً ، فأحط بهذا الموضوع علماً واعرفه كما ينبغى ، يزل عنك كل إشكال يورد عليك

(١) فى دار الدنيا .

(٢) فى دار البرزخ .

من داخل وخارج . وقد أرانا الله سبحانه ، بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك نموذجاً فى الدنيا من حال النائم ، فإن ما ينعم به أو يعذب فى نومه . يجرى على روحه أصلا ، والبدن تبع له : وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيراً مشاهداً ، فيرى النائم أنه فى نومه ضرب ، فيصبح وآثار الضرب فى جسمه ، ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه ، ويذهب عنه الجوع والظمأ ، وأعجب من ذلك أنك ترى النائم ، يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك . لأن الحكم لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه ، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس ، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا فى البرزخ ، بل أعظم . فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع ، فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم صار الحكم بالنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً ، ومتى أعطيت هذا الوضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته وضمه وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه . . وقلة علمه . . » .

أما بعد : فإنا نختم هذا البحث بكلمة يقولها حجة الإسلام الإمام

الغزالى ، عن تجربة شخصية يؤيد ما هو واضح من بدهيات الجو الإسلامى فى هذا الموضوع ، وهى كلمة تعبر عن رأى جميع الصوفية وجميع فلاسفة الإشراق :

« ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

الصلاة

أتى رسول الله ﷺ ، على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر وكلما رضخت عادت كما كانت . لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

... أتى دور الفروض الدينية ، وبدأت هذه الفروض بالصلاة .

والصلاة هى الركن الثانى فى الإسلام ، إن منزلتها ومنزلة ما عداها ، إنما يأتى بعد الإيمان بالله وبرسوله .

أتى دور الفروض الدينية ، وإن لم تكن قد فرضت بعد : ذلك أن الرحلة المباركة ترسم الماضى والحاضر والمستقبل ، إنها ترسم الحياة

الإسلامية ، فى جميع أدوارها الزمنية ، فى جانب العقيدة والأخلاق منها .

والصلاة فى الوضع الإسلامى عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، مثلها فى حياة المسلم كمثل نهر جار غمر [1] على باب أحدكم – على حد تعبير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – يغتسل منه كل يوم خمس مرات .

وعن عبد الله بن قرط رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ :

« أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله » [2] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » [3] .

وسنتحدث إن شاء الله عن الصلاة فيما بعد فنبين أهميتها الكبرى فى الوضع الإسلامى ، ولكنا قبل أن نفرغ إلى الزكاة نقول : إن الرسول ﷺ رأى يوماً فيما يراه النائم تمثيلا لتارك الصلاة يشبه التمثيل الذى

---

(١) الغمر هو الكثير الماء

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط ، وقال:لا بأس بإسناده إن شاء الله .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير . وقال:تفرد به الحسين بن الحكم الحبرى .

تقدم . يقول صلوات الله وسلامه عليه :

. . . فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمى ، وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمى ، فيقع دماغه جانباً ، وتقع الصخرة جانباً .

ولما سأل ﷺ عن ذلك ، قيل له :

« أولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ، ويصلون الصلاة لغير مواقيتها فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار » .

وقبل أن نفرغ إلى الزكاة أيضاً نذكر ما يلى :

يقول الإمام القشيرى :

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رضى الله عنه يقول :

إن نبينا عليه السلام أتى للأمة بالمعراج على التحقيق ، فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج .

وقد كان المعراج له عليه السلام ثلاث منازل ، من الحرم إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى .

فكذلك لنا الصلاة ثلاث منازل : القيام ، ثم الركوع ، ثم السجود ، وهو نهاية القربة .

قال الله تعالى :

(واسجد واقترب) [1] .

(١) سورة العلق : آية ١٩ .

الزكاة

وتأتى الزكاة بعد الصلاة فى ترتيب منهج الحياة الذى نحن بصدده .

لقد أتى رسول الله ﷺ على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع ، والزقوم ، ورضف جهنم .

فقال : ما هؤلاء ؟

فقال جبريل عليه السلام : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

والزكاة هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، ولقد حارب عليها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وذلك أنه حينما انتقل الرسول ﷺ ، إلى الرفيق الأعلى ، قال بعض القبائل من الأعراب :

إنا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وسنستمر نؤدى الصلاة ، ونصوم رمضان ، ونحج ، أما الزكاة فإنها مادة ومال ولا شأن للدين بذلك وأعلنوا الامتناع عن أدائها .

وكان هذا أول تفكير منحرف من بعض المسلمين فى الإسلام يهدف إلى فصل الدين عن الدنيا أو المادة ، أو بالتعبير الحديث يهدف إلى فصل الدين عن الدولة ، فقال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : سأحاربكم .

إنه يحارب من أراد فصل الدين عن الدولة . فقيل له : كيف تحارب من يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؟

فكانت إجابته :

أن الشهادتين لهما حقوق إذا امتنع إنسان عن أدائها فإنه يحارب عليها .

وأن من حقوق الشهادتين أداء الزكاة .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه عن أبى هريرة نضر الله وجهه قال :

« لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ، وكفر من كفر من العرب — بسبب عدم إخراجهم للزكاة ، وامتناعهم عن تأديتها — فقال عمر ، رضى الله عنه : كيف نقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ، ﷺ :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه وحسابه على الله » .

فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ؛ والله لو منعونى عناقاً [1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها .

قال عمر رضى الله عنه : « فو الله ما هو إلا أن شرح الله صدر

(١) أى شاة صغيرة . وفى رواية أخرى (عقالا) والمقصود أى شىء ولو كان يسيراً .

أبى بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق » .

من هذا الحديث الشريف نعلم أن مانع الزكاة بهذا الوضع ، وعلى هذه الصورة كافر ، وأنه يحارب حتى يؤديها وإلا قتل .

وقد حارب سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ما نعى الزكاة ، لأنه رأى أن الامتناع عن الزكاة – إنكاراً لها – ارتداد عن الإسلام ، ولم ينفعهم – فيما رأى سيدنا أبو بكر ، وفيما رأى الصحابة معه – صلاة أو صيام ، أو غير ذلك من الشعائر الإسلامية ، ذلك أن الزكاة : ركن من أركان الإسلام ، والامتناع عن أدائها ، إنما هو هدم لركن من أركان الدين .

إنها الركن الثالث ، يدفعها من تجب عليه لمستحقيها ، « ليحيى بها نفوساً ، ويشبع بها بطوناً ، ويمسح بها دموعاً ، ويزيل بها آلاماً ، وينال بها ثواباً وأجراً من الله تعالى » .

وما من شك فى أن الزكاة رابطة بين الإنسان وربه ، إنها رابطة رضوان من الله وأجر وثواب ، ونماء وبركة .

ورابطة شكر من الإنسان لله تعالى ، على ما أنعم به وتفضل وأحسن وأكرم .

وهى من ناحية أخرى : رابطة بين الإنسان وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه .

رابطة مودة وتعاطف وتراحم .

وقد أنذر الله تعالى الممتنع عن أدائها وتوعده بعذاب أليم .

أما الذى يؤديها فقد ذكره الله سبحانه وتعالى ، فيمن رضى الله عنهم ، وأجزل لهم ثوابه ، يقول سبحانه :

(فأنذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى) [1] .

ويقول سبحانه :

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير) [2] .

الصدقة

وبجوار الزكاة يحسن الحديث عن الصدقة وسواء كنا بصدد الزكاة ، أو بصدد الصدقة فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) [3]

---

(١) سورة الليل : الآيات ١٤ — ٢١ . (٣) سورة البقرة : آية ٢٦١ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٨٠ .

ويقول سبحانه :

(فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى)[٢] .

ويقول سبحانه :

(وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) .

لقد رأى رسول الله ، ﷺ ، صورة الممتنعين على الزكاة ورأى أيضاً – فيما يراه النائم – صورة آكلى الربا ، ورأينا أن نتحدث عن الربا ، بعد الحديث عن الزكاة والصدقة مباشرة لما بينهما من فرق ، هو الفرق بين الخير والشر.

الربا

فقد رأى رسول الله ﷺ : نهراً من الدم يفور كفوران المراجل ، وعلى حافتى النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما طلع طالع قذفوه بها فتقع فى فيه فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر. فلما سأل رسول الله ﷺ عنهم قيل له : أولئك الذين أكلوا الربا ، فهم يعذبون بها ، حتى يصيروا إلى النار.

أما فى رحلة الإسراء والمعراج فإنه ﷺ مر بقوم بطونهم أمثال

---

(١) سورة الليل : الآيات ٥ – ١١ .

البيوت ، كلما نهض أحدهم خر على الأرض ، فلما سأل عنهم جبريل ، قال : هم أكلة الربا .

وللصورة البشعة للربا آذن الله سبحانه المتعاملين به بالحرب ، لقد آذن الله بالحرب صنفين من الناس :

١ – أكلة الربا

٢ – المعادون لأولياء الله .

أعلن الحرب على أكلة الربا فى القرآن الكريم :

(فَأْذنوا بحرب من الله ورسوله)[1] .

وأعلن الحرب على من عادى الأولياء ، فى الحديث القدسى الذى رواه الإمام البخارى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » .

ورمز المرابى فى ليلة الإسراء ، رجل يسبح فى بحر من الدم ، ويلقى فى فمه قطع من النار يبتلعها : إنه يسبح فى الدماء التى امتصها ممن تعامل معهم وما أخذ من قطع النقود تلتهب ناراً تصير فى جوفه تحترق وتشتعل فيها .

ولا ريب أن الطرف المعارض للصدقة وللزكاة ، الطرف الذى يبغضه الله ، ويبغض المتعاملين به ، هو الربا .

ولقد حارب الإسلام الربا حرباً لا هوادة فيها ، حاربه لأنه مبدأ

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٩ .

ليس بإنسانى ، واستعمل فى محاربته من التعبير أقساه .

لقد حاربه فى جملته وتفصيله ، يقول الله تعالى :

(الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس)[1] .

والمتعاملون بالربا :

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

والله سبحانه وتعالى يقول :

(يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم)[2] .

ولكنه سبحانه وتعالى يفتح للمتعاملين بالربا أبواب توبته :

يقول تعالى :

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون)[3] .

ومما لا شك فيه أن الربا – على أية صورة من صوره – يتعارض مع الروح الدينية العامة التى هى الرحمة والتعاون .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٥

(٢) سورة البقرة : آية ٢٧٦

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ و ٢٧٩ .

ونذكر فى نهاية الحديث عن الصدقة والربا والزكاة :

(وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)[1] .

وفى هذه الآية الكريمة يشير الله سبحانه إلى أن الشح والبخل وعدم الإنفاق فى سبيل الله إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة .

ويقول سبحانه :

(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير)[2] .

وفى هذه الآية الكريمة يرشد الله سبحانه وتعالى إلى أن أصحاب الأموال قد استخلفهم الله سبحانه وتعالى فى ماله هو ، وأنهم مجرد مستخلفين ، وهذا يشير إلى أنهم إذا أساءوا فإنه يرفع استخلافهم على المال فيصبحوا ولا مال لهم .

ويقول سبحانه :

(من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ، وله أجر كريم)[3] .

إنه سبحانه وتعالى يضاعفه له فى الحياة الدنيا .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٥

(٢) سورة الحديد : آية ٧ .

(٣) سورة الحديد : آية ١١ .

ثم يجزل له الأجر :

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) [1] .

الثبات على العقيدة

نقلتنا هذه الرحلة المباركة من التوبة إلى الجهاد مباشرة ، ثم كانت الصلاة والزكاة ممثلتين لبقية فروض العبادة .

وقد تحدثت الرحلة عن أنواع من الآثام باعتبارها ممثلة لما عداها وأن الله سبحانه يحاسب عليها وعلى غيرها من المعاصى إذا لم يبادر الإنسان بالتوبة الخالصة النصوح .

وقبل أن نبدأ فى ذكر هذه الآثام نتحدث عن قوة الإيمان وثبات المؤمنين ، والتمسك بالعقيدة ، حتى ولو أدى ذلك إلى الموت على أية كيفية .

إن الشهداء من أجل عقيدتهم لهم رائحة زكية تستمر حتى يوم القيامة ، وإن الرائحة الزكية التى تنبعث من الأماكن التى استشهدوا فيها والأماكن التى وقفوا فيها ، لتدل دلالة واضحة على أنهم فى رياض

---

(١) سورة الحديد : آية ١٢ .

الجنة محاطين بروح من نسماته ومن رحمته.

لقد شم رسول الله ، ﷺ ، فى مسراه رائحة طيبة.

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها. أما قصتهم فإننا نرويها على نحو غير السابق فى بعض تفاصيله وإن كان الجوهر واحداً.

لقد شم رسول الله ، ﷺ ، الرائحة الطيبة وسأل عنها جبريل فأخبره أنها رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها بينما كانت تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها.

فقالت : بسم الله تعس فرعون.

فقالت ابنة فرعون : أو لك رب غير أبى ؟

قالت : نعم.

قالت : أفأخبر بذلك أبى ؟

قالت : نعم.

فأخبرته : فدعاها فقال : أو لك رب غيرى ؟

قالت : نعم ربى وربك الله ، وكان للمرأة زوج وثلاثة أولاد ، أصغرهم رضيع ، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعها عن دينها فأبيا.

فقال : إنى قاتلكما.

قالت : إحسانا منك إلينا إن قتلتنا أن تجعلنا فى مكان واحد فتدفننا جميعاً .

فقال : ذلك لك بما لك علينا من الحق . .

فأمر ببقرة من نحاس فأحميت بزيت ثم أمر بهم فألقوا فيها واحدا بعد واحد حتى بلغ الرضيع ، وكانت أمه تحمله ولشفقتها عليه تلكأت وكادت ترجع لموافقة فرعون .

فقال : يا أمه قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق .

فكان هذا الرضيع ممن تكلموا فى المهد خرقاً للعادة .

وإن لنا فى تاريخنا الإسلامى مواقف مشهورة مشهودة ، وقف فيها الصحابة رضوان الله عليهم مواقف من لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

فى غزوة بدر استشار رسول الله ، ﷺ ، الصحابة فى الجهاد ، فقام المقداد بن عمرو ، رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فقال :

« يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد [1] لجالدنا معك دونه حتى تبلغه » .

---

(١) مكان باليمن .

وقام سعد بن معاذ رضى الله عنه ، وكان من الأنصار فسأل رسول الله ، ﷺ عما إذا كان يعنى الأنصار باستشارته هذه فلما أجاب رسول الله ﷺ ، بالإيجاب قال :

«لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبرٌ فى الحرب ، صدقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله» .

الرموز الخاصة باللسان

يقول العرب : « مقتل الرجل بين فكيه » .

ومن المعروف أنه مما يكب الناس على وجوههم فى جهنم إنما هى حصائد ألسنتهم . .

ولقد حذر الله سبحانه فى كثير من آى القرآن من آثام اللسان ، وحذر رسوله ، ﷺ ، فى كثير من الأحاديث النبوية من آثام اللسان .

يقول الله سبحانه وتعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا

أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)[1] .

ويصور القرآن مثل المغتاب فى صورة بالغة البشاعة .

يقول تعالى :

(ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم)[2] .

فقد مثل الله سبحانه الاغتياب :

بأكل لحم الإنسان .

وجعل المأكول أخاً .

وجعل الأخ ميتاً .

وعقب على ذلك بقوله : (فكرهتموه) .

ولقد نالت آثام اللسان فى رحلة الإسراء قدراً موفوراً من التشبيه والتمثيل :

١ – لقد أتى رسول الله ، ﷺ ، على قوم تقرض ألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء . !

قال : ما هذا ياجبريل ؟

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٠ .

(٢) سورة الحجرات : آية ١٢ .

قال : هؤلاء خطباء الفتنة ، خطباء أمتك يقولون بما لا يفعلون .

٢ – وأتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

٣ – ورأى قوماً أظفارهم من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم .

فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم .

٤ – ورأى قوماً تقطع لحومهم من جنوبهم ، وتطعم لهم كرهاً .

فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء مثل الغمّازين واللمّازين .

٥ – وفى إحدى رؤاه ﷺ ، رأى ملكاً وبين يديه آدمى وبيد الملك كلُّوب من حديد : فيضعه فى شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهى إلى أذنه ثم يأخذ فى الأيسر فيلتئم الأيمن

فلما سأل جبريل عنه قال له :

أولئك الذين كانوا يمشون ببر المؤمنين بالنميمة ، ليفرقوا بينهم ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار .

آثام الجوارح

والجريمة الكبرى ، الجريمة الأساسية إنما هى الإلحاد .

يقول سبحانه :

(قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟

الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً) [1] .

وقد وضع الله سبحانه وتعالى للملحدين تمثيلا فى القرآن الكريم بين فيه العلل والأسباب وأوضح فيه النتائج وأسفر عن الصورة صارخة ، واضحة ، لا يحجبها قناع .

يقول سبحانه :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) [2] .

---

(١) سورة الكهف : الآيات ١٠٣ – ١٠٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٧٥ – ١٧٦ .

وجرائم الجوارح ذكر الله سبحانه وتعالى منها كثيراً فى قوله تعالى :

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)[1] .

ولقد ذكرت الرحلة المباركة بعض الرموز التى تمثل آثام الجوارح ، ذكرت البعض ولم تذكر الكل ، وذلك أنها ما كانت بصدد الإحصاء والاستقصاء .

١ – من ذلك مثلا أن رسول الله ، ﷺ ، أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم نىء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من النىء ويدعون النضيج .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى

(١) سورة الأنعام : الآيات ١٥١ – ١٥٣ .

امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) (١)

٢ – ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس ، لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

ورسول الله ﷺ ، يقول :

« لا إيمان لمن لا أمانة له » .

٣ – وفى حديث أبى سعيد أنه رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد ، وأخرى عليها لحم نتن عليها ناس يأكلون .

قال جبريل : هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام .

٤ – وأنه مر بقوم مشافرهم كالإبل يلتقمون حجراً فيخرج من أسفلهم .

---

(١) سورة النور : آية ٢ .

وأن جبريل قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً أما جزاء أصحاب الآثام إذا لم يتوبوا ، فهو دخولهم فى جهنم حيث العذاب ألواناً .

وعن جهنم نقول : إن رسول الله ﷺ أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول :

رب آتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى ، وسعيرى وحميمى ، وضريعى وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى بما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

الوصول إلى بيت المقدس

ووصل رسول الله ، ﷺ إلى بيت المقدس .

وفى رواية أنس عند مسلم :

ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر ، وإناء من لبن فاخترت اللبن .

فقال جبريل : اخترت الفطرة ، أى اخترت اللبن الذى عليه بنيت الخلقة [1].

وقال النووى : المراد بالفطرة هنا الإسلام والاستقامة .

والخمر فى التعبير الإسلامى هى أم الخبائث ، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنها رجس من عمل الشيطان ، وقد لعن الله شاربها وبائعها وحاملها والمحمولة إليه ولعن عاصرها والمتجر فيها على أى وضع كان .

والبيرة من أنواع الخمور « وكل ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

وفى رواية ابن مسعود نحوه – أى نحو رواية أنس السابقة – ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد . ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل فقدمنى فصليت بهم .

وفى رواية أبى أمامة عند الطبرانى : ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً ﷺ .

عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى

ثم عرج ﷺ إلى السموات العلا فتجاوزها سماء سماء حتى تجاوز الكون كله وكان عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى : الجنة التى يأوى إليها المتقون من عباد الله ، وشم رسول الله ﷺ ، ريحاً طيبة باردة كريح

(١) انظر كتاب الأنوار المحمدية ليوسف النبهانى

المسك وسمع صوتاً .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتني ما وعدتني به فقد كثرت غرفي وإستبرقي ، وحريري ، وسندسي ، وعبقري ولؤلؤي ومرجاني ، وفضتي ، وذهبي ، وأكوابي ، وصحافي ، وأباريقي ، ومراكبي ، وعسلي ، ومائي ، ولبني ، وخمري ، فآتني ما وعدتني !

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي ، وعمل صالحاً ، ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، ومن خشيني فهو آمن ، ومن سألني فقد أعطيته ، ومن أقرضني جازيته ومن توكل على كفيته ، إنني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد قد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين .

قالت : قد رضيت .

إذ يغشى السدرة ما يغشى

في إبهام : « ما يغشى » من التفخيم مالا يخفى :

فكأن الغاشي أمر لا يحيط به نطاق البيان ، ولا تسعه أردان الأذهان .

وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة ، وجواز أن يكون للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد .

وورد فى بعض الأخبار تعيين هذا الغاشى فعن الحسن :

غشيها نور رب العزة جل شأنه فاستنارت .

ونحوه ما روى عن أبى هريرة :

يغشاها نور الخلاق سبحانه (عن الألوسى) .

المشاهدة

يقول الله تعالى :

(ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) .

ويقول الحديث الشريف : ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين أو أدنى .

ويقول الإمام ابن حجر :

وقد أخرج الأموى فى مغازيه ومن طريق البيهقى عن محمد بن عمرو ، وعن أبى سلمة عن ابن عباس فى قوله تعالى :

(ولقد رآه نزلة أخرى) .

قال : دنا منه ربه .

يقول الإمام ابن حجر : وهذا سند حسن وهو شاهد قوى لرواية شريك ، ويكون المعنى على غرار « ينزل ربنا » .

بعد ذلك نسأل :

هل رأى محمد ﷺ ربه ؟

هل شاهد الجلال والجمال ؟

نقول أولا : إن الإمام الصاوى ذكر بمناسبة تفسير قوله تعالى :

(ومامنا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) .

إن هذه الآيات حكاية عن اعتراف الملائكة بالعبودية رداً على عبدتهم ، والمعنى : ليس منا أحد إلا له مقام معلوم فى المعرفة ، والعبادة ، وامتثال ما يأمرنا الله تعالى به .

قال ابن عباس : ما فى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى ويسبح . ثم يقول :

قيل إن هذه الآيات الثلاث نزلت ورسول الله ﷺ ، عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل فقال النبى ﷺ :

أهنا تفارقنى ؟

فقال جبريل : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى هذا .

وأنزل الله تعالى حكاية عن الملائكة :

(وما منا إلا له مقام معلوم) .

ووقف جبريل واقترب محمد ﷺ .

ويذكر الإمام الصاوى فى قوله تعالى :

(ما كذب الفؤاد ما رأى) أن محمداً ﷺ ، رأى ربه مرتين : مرة فى مبادئ البعثة ، ومرة فى ليلة الإسراء ، «واختلف فى تلك الرؤية ،

فقيل رآه بعينه [1] حقيقة ، وهو قول جمهور الصحابة ، والتابعين ، منهم ابن عباس ، وأنس بن مالك والحسن وغيرهم ،وعليه قول العارف البرعى :

وإن قابلت لفظة : « لن ترانى »
بـ « ما كذب الفؤاد » فهمت معنى
فموسى خر مغشياً عليه
وأحمد لم يكن ليزيغ ذهنا

وقيل لم يره بعينه ، وهو قول عائشة رضى الله عنها .

والصحيح الأول ، لأن المثبت مقدم على النافى ، أو لأن عائشة لم يبلغها حديث الرؤية لكونها كانت حديثة السن » .

لقد ذهب غير واحد فى قوله تعالى :

(ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

إلى أنه فى أمر العروج إلى الجناب الأقدس ودنوه سبحانه منه ﷺ ، ورؤيته عليه السلام ، إياه جل وعلا ، فالضمائر فى (دنا وتدلى)

---

(١) سيأتى فيما بعد (رآه على الوجه اللائق) وهذا يعنى أن الرؤية ثابتة أما الكيفية فإنها غير معروفة ومن المؤكد أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يشعر شعوراً واضحاً يقينياً أنه فى حضرة الله تعالى : المحيط ، الذى ليس كمثله شىء ، اللطيف ، النور .

ولعل هذا الشعور هو المقصود بالمشاهدة وعلى ذلك فلا معنى للنقاش فى هذا الموضوع ونحن هنا إنما روينا ما قيل وبالله التوفيق .

و (كان) و (أوحى) وكذا الضمير المنصوب فى (رآه) لله عز وجل .

ويشهد لهذا مافى حديث أنس عن البخارى من طريق شريك بن عبد الله :

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأولى إليه فيما أوحى خمسين صلاة .. (الحديث) فإنه ظاهر فيما ذكر.

واستدل بذلك مثبتو الرؤية كحبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما وغيره .

والظاهر أن ابن عباس لم يقل بالرؤية إلا عن سماعها ، وقد أخرج عند أحمد أنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

« رأيت ربى » [1] .

ذكره الشيخ محمد الصالحى الشامى تلميذ الحافظ السيوطى فى الآيات البينات وصححه .

ثم إن القائلين بالرؤية اختلفوا ، فمنهم من قال : إنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه سبحانه بعينه ، وروى ذلك ابن مردويه عن ابن عباس ، وهو مروى أيضاً عن ابن مسعود ، وأبى هريرة ، وأحمد ابن حنبل .

---

(١) انظر فى كل ذلك تفسير الإمام الالوسى .

ومنهم من قال : رآه عز وجل بقلبه ، وروى ذلك عن أبي ذر .
يقول العلامة الطيبي فيما يرويه الإمام الألوسي :

« ولا يخفى على كل ذى لب إباء مقام (فأوحى) الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله (ما أوحى) إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتساويين مما يضيق عنه بساط الوهم ولا يطيقه نطاق الفهم ، وكلمة (ثم) على هذا للتراخى الرتبى ، والفرق بين الوحيين : أن أحدهما وحى بواسطة وتعليم ، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم .

وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنه قال : لما قرب الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف لأنه لا تتحمل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف ، وذلك قوله تعالى :
(فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

أى كان ما كان ، وجرى ما جرى ، قال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب لحبيبه ، وتلطف به تلطف الحبيب بحبيبه ، وأسر إليه ما يسر الحبيب إلى حبيبه فأخفيا ولم يطلعا على سرهما أحداً . وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
سر أرق من النسيم إذا سرى

ومعظم الصوفية على هذا : فيقولون بدنو الله عز وجل من النبى ﷺ ، ودنوه سبحانه على الوجه اللائق .

وكذا يقولون بالرؤية كذلك .

وقال بعضهم فى قوله تعالى :

(ما زاغ البصر وما طغى) ما زاغ بصر النبى ﷺ . وما التفت إلى الجنة ومزخرفاتها ، ولا إلى الجحيم وزفراتها . بل كان شاخصاً إلى الحق (وما طغى) عن الصراط المستقيم .

وقال أبو حفص السهروردى : ما زاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وما طغى) لم يسبق البصيرة ويتعدى مقامه .

ونحن نقول كما يقول الإمام الألوسى فى صراحة لا لبس فيها :

« أنا أقول برؤيته ﷺ ربه سبحانه ، وبدنوه منه سبحانه على الوجه اللائق ، ذهبت فيما اقتضاه ظاهر النظم الجليل إلى ما قاله صاحب الكشف . أم ذهبت فيه إلى ما قاله الطيبى فتأمل والله تعالى الموفق » .

إن كلمة « على الوجه اللائق » تفض كل نزاع ، والله أعلم .

خـــاتمـة

في بعض آثار الإسراء والمعراج

ومن الثمار التى جنتها الأمة الإسلامية ، والتى كانت من مقاصد إذاعة النبأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين : انفصال كل هؤلاء عن الأمة الإسلامية الناشئة .

لقد كفر – عند سماع النبأ – من كفر بعد إسلامه وارتد من ارتد بعد إيمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا ، إلا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة . إن هؤلاء المكيين الذين آمنوا وصبروا على الحوادث القاسية ، على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها ، إن هؤلاء المكيين الذين صبروا ، وصابروا وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، إن هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها . والذين من أجل ذلك يجب أن يكونوا مهيئين لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات ، نقول : إن هؤلاء المكيين يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة . ومن وسائل هذه التصفية : إذاعة نبأ الإسراء والمعراج !

ليتكس من يتكس ، وليبق من يبق عن بصيرة وبينة ، وعن إيمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، إيمان يصدق الرسول صلوات الله

وسلامه عليه ، فى كل ما يأتى به ، يصدقه بمجرد إنبائه .

والمثل الأعلى فى ذلك : إنما هو سيدنا أبو بكر حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فو الله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

هذا الإيمان المطلق بالرسول هو الذى جعله صلوات الله عليه وسلامه ، يطلق على أبى بكر رضوان الله عليه : « الصديق » .

و « الصديقية » مرتبة من مراتب الإيمان ، لا ينالها إلا من جاهد نفسه جهاداً تخطى به إيمان العامة ، وسما فى إيمانه درجة ، إلى أن أصبح قائماً بالله متجهاً إليه ، عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع .

والأمة الإسلامية بأكملها ، مطلوب منها ، بالنسبة إلى أخبار رسول الله ، صلوات الله عليه ، أن تكون على غرار الصديق ، رضوان الله عليه ، تلقى بقيادها إلى إخباره وتسلم نفسها إلى إنبائه مصدقة تصديقاً كاملا : تصديقاً يحملها على العمل بما جاء به ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه ، تصديقاً إيجابياً يحقق للأمة الإسلامية المجد الذى ترجوه ، تصديقاً ينفى عن وجودها هؤلاء الذين انحرفوا مع المنحرفين واستجابوا لنداء أعداء الإسلام فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فى

أحاديثه وفى سننه ، زاعمين أنهم من المجددين وما هم فى الواقع إلا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .

إن هذه الأقلام التى تشكك فى السنة وفى الأحاديث النبوية ليست إلا أقلاماً مقلدة لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، وإنما تحمل طابع التقليد ، وطابع الشك والتردد الذى يتنافى مع الإيمان ، ويتنافى مع الصديقية .

أما ثمرة الإسراء والمعراج ، وأما هدية الإسراء والمعراج . . .

وأما أعظم المنح الإلهية فى الإسراء والمعراج ، أعظمها على الإطلاق !

أما النعمة العظمى والتجلى الإلهى الأكبر فى الإسراء والمعراج فإنه : الصلاة .

ولا يتأتى لنا – عجزاً وقصوراً – أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر ، على هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الإسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هى الصلة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .

إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل ، ويجب أن يكون كاملا ، عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة ، لتخلص النفس إلى المنعم حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، إن إقامة الصلاة أو إقامة الدين إنما هى إقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التى يجرى وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى . وما من شك فى أن الصلاة يقيمها الإنسان كما أراد الله ورسوله ، من أنجح الوسائل فى القرب إلى الله . إنها البراق الذى يجتاز به المؤمن ، فى سرعة سريعة ، طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليتقرب إليه تعالى فينعم فى رحابه .

هذه وغيرها من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيها : هى التى يجب أن ننتبه إليها وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

إن الله سبحانه وتعالى : أخذ يتحدث فى سورة النجم عن آفاق عليا ، وعن أجواء إلهية جديدة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانىَ حسرى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه ، يتحدث عن :

رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراءهن وراء

ثم . . . ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف ، هوى بنا فى سرعة سريعة دون سابق إنذار ، ليفتح أعيننا على مهازل ومهاوٍ من الشرك يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا ، فقال سبحانه ، بعد أن ذكر هذه التجليات الإلهية :

(أفرأيتم اللات والعزى ؟
ومناة الثالثة الأخرى)

لقد أرانا سبحانه ، بهذه الكلمات : البشرية المسكينة فى ضلالها الدينى ، وانحرافها الذهنى .

إن كل من يترك هذه الآفاق العليا ويتجاوزها ليتحدث عن أن الرسول ﷺ ، أسرى به بجسمه وروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة أو مناما . إنما هو بذلك ينحدر بنفسه مختاراً ، من التجلى الإلهى ، ليهوى بها منتكساً إلى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكساً من جو سدرة المنتهى إلى الجو المادى ، ومن مجالات النور السماوى المتلألئ إلى ظلمة الجدل ، وزيغ المماراة فى الدين .

فلننصرف عنه . ولنتركه وما اختار ، مبتعدين عن الجدل مع المارين ، ولندع الله قائلين :

(ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) .